

فلسفة الدين والحياة- هنري برغسون أنموذجا

Philosophy of religion and life - Henri Bergson as a model

جامعة محمد بن احمد وهران وهران 2	فلسفة	خالدي فتيحة* bouhsiabdeloihab@gmail.com
جامعة محمد بن احمد وهران وهران 2	فلسفة	انور حمادة anwarpuilo@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2022/05/05	تاريخ القبول: 2021/10/31	تاريخ الإرسال: 2021/10/18
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص: يرى برغسون أن طبيعة الحياة تكمن في التناسق بين الزمان باعتباره تعددية كونه يمثل صورة جوهرية تؤدي بالضرورة إلى إمكانية حدوث الفعل الذي يعبر عن الإندفاع الحيوي الذي تضمنه الذاكرة. يعتقد برغسون أن الحدس هو نتيجة ضرورية لارتباط الزمان بالذاكرة، وهو الأمر الذي يشكل عمود الفلسفة الروحية البرغسونية. تعتبر الحياة تطورية وتشكل الديمومة سمة جوهرية لها لضمان عملية الإستمرارية للحياة، لكنه يرفض ربط هذا التطور بالعملية الفيزيائية الميكانيكية التي أقرها كل من داروين وسبنسر حيث اخضعها طبيعة الحياة البشرية للعوامل الفيزيائية الطبيعية بحيث يكون الإنسان آلة فقط لا روح فيها. الديمومة مظهر مهم وجوهري للحياة يقوم عليه الفكر الخلاق وهو سمة مميزة للجنس البشري، ذلك الكائن العاقل الذي لا يجب أن يخضع للغريزة مثل الحيوان

الكلمات المفتاحية: برغسون؛ التطور؛ الشعور؛ الأخلاق؛ الديمومة

Abstract : Bergson believes that the nature of life lies in the consistency between time as a plurality as it represents a fundamental image that necessarily leads to the possibility of an action that expresses the vital impulse contained in memory. Bergson believes that intuition is a necessary result of the connection of time with memory, which constitutes the pillar of Bergsonian spiritual philosophy. Life is considered evolutionary and duration is an essential feature for it to ensure the continuity of life, but he refuses to link this development to the physical-mechanical process approved by Darwin and Spencer, where they subject the nature of human life to natural physical factors so that man is only a machine without a soul. Permanence is an important and essential aspect of life. It is based on creative thought and is a distinctive feature of the human race, that rational being who should not be subject to instinct like an animal

Keywords : Bergson; Development; Feeling; Moral; duration

مقدمة:

لطالما كان مفهوم الحياة مرتبط بمسألة القيم الأخلاقية والدين في تفكير الإنسان وسلوكه ومعتقداته لذلك كان الفلاسفة والمفكرين منشغلون بالبحث في قيم الحياة لارتباطها بطبيعة الإنسان ومسار حياته وعلاقاته مع غيره ضمن إطار المجتمع الإنساني لتحقيق السعادة والرفق، ولقد ارتبطت القيم بالإتيقا لأن الأمر متعلق بفهمنا للإنسان في ما يحياه وفي ما ينتظره وفي ما يحدد منزلته(1) ولقد كان من أهم فلاسفة الحياة "هنري برغسون" الذي بحث عميقا في الجانب الروحاني للإنسان من خلال تسليط الضوء على أهم جوانب الحياة البشرية من طاقة روحية ومعتقدات وطبيعة الدين ومنبعه، إن محتوى هذا الكلام لا يخرج عن المشروع الفكري لبرغسون، وبالأخص المفاهيم الثلاثة التي تعتبر مفاهيم مفتاحية لا يمكن لأي كان أن يستوعب المشروع الفكري لبرغسون دون الإحاطة بها وإدراكها الإدراك الذي كان هنري برغسون نفسه يقصده؛ فهناك علاقة بين المفاهيم الثلاثة الأساسية، مفاهيم الزمان، والذاكرة، والاندفاع الحيوي.

نحن أمام إشكالية مهمة تتعلق بطبيعة الحياة في فلسفة برغسون وعلاقتها بالأخلاق والدين، من خلال تسليط البحث حول حقيقة الجانب الروحي للإنسان، وإمكانية التناسق بين الجانب الروحاني والمادي له في ظل سيطرة المادة على تفكيره، وللجواب على هذا الإشكالية يمكن طرح التساؤلات التالية:

هل يمكن فهم طبيعة الحياة من خلال العلاقة القائمة بين الزمان والذاكرة والاندفاع الحيوي عند برغسون؟

كيف يمكن تفسير تجليات الحياة ومظاهرها في ظل تعددية أشكالها وأوانها؟ هل يكن بناء منظومة حياتية في ظل تعددية القيم إذا ما اعتبرنا أن الدين والأخلاق ليسا واحدا بل أكثر من ذلك ؟

يبدو لنا أن الزمان يحدد بصورة جوهرية تعددية إمكانية (ما يختلف من حيث الطبيعة). تظهر الذاكرة عندئذ كالتواجد المشترك لكل درجات الاختلاف في هذه التعددية، في إمكانية الفعل هذه، ويدل الاندفاع الحيوي أخيرا على تفعيل هذا الإمكانية وفقا لخطوط تمايز تتناسب مع الدرجات، وصولا إلى ذلك الخط الدقيق للإنسان الذي يعي فيه الاندفاع الحيوي ذاته".(2) هذا النص يثبت أن جيل دولوز يلخص العلاقة بين

هذه المفاهيم الثلاثة في نقطة تقاطع واحدة هي الإنسان، من حيث هو الكائن الوحيد القادر على إدراك الاندفاع الحيوي بطريقة حدسية شعورية، وما نلاحظه هو عدم تعقيب دولوز على وجهة النظر البرغسونية بل إن جيل دولوز يظهر تنبئا لأفكارها بشكل يثبت حضور هنري برغسون في أفكار جيل دولوز؛ بل إن هذا الأخير يعتبر هنري برغسون من بين الفلاسفة المؤثرين في الإنتاج الفلسفي اللاحق، أما المقصود بذلك فهو أن الفلاسفة نوعان، الأول ينتهي بسرعة لأنه لا يؤثر في من يأتون بعده، أما الثاني فهو الذي يستمر بعد وفاته عن طريق التسرب في أفكار اللاحقين من الفلاسفة والذين أشرنا إليهم بالآخر نظرا لقوة أفكاره وشموليتهما بالشكل الذي يجعلها حاضرة في كل موضوع فلسفي تقريبا. على اعتبار أن 'برغسون يروج للفلسفة الروحانية عن طريق الحدس كمنهج في المعرفة، على الرغم من ماديته في الفكر، حيث أن الزمان والذاكرة والاندفاع يشكلان منعطف كبير ومهم في فلسفة برغسون الروحانية، فالحدس حسبه هو ليس عاطفة ولا إلهاما أو انجذاب مشوشا بل منهج معد وحتى أحد مناهج الفلسفة الأكثر إعدادا له قواعده الصارمة التي تشكل ما يسميه 'برغسون الزمان في الفلسفة، صحيح أن "برغسون يلح على التالي، أن الحدس كما يفهمه منهجيا يفترض الزمان، ولقد كانت هذه الاعتبارات حول الزمان تبدو لنا حاسمة ودرجة بعد درجة رفعت لنا الحدس إلى مقام منهج فلسفي، (1 صفحة 5) ويردف برغسون قائلا: أن الحدس كلمة ترددا أمامها طويلا وقد كتب إلى "هوفدينغ"، أن نظرية الحدس التي نشدد عليها أكثر بكثير مما على نظرية الزمان لم تظهر لي إلا بعد هذه الأخيرة بزمان طويل، بمعنى أن الحدس هي نتيجة حتمية لدرايته للزمان والذاكرة البشرية للتدليل على بناء فلسفته الروحانية التي تمد العقل بالطاقة، وذلك لفهم حقيقة الحياة، حيث أن برغسون يقول: أن المنطق يتدفق من خلال الأشياء الخاملة التي تعتبر جمادا لا روح فيه، لكن هناك شعور إلى جانب عدم الارتياح على هذه الأرض الجديدة، فنكون حسب 'برغسون 'مخرجين جدا، لذلك نتثبت باكتشاف بيولوجي بفضل المنطق النقي الذي يعبر عن روح الحياة من خلال الجمع بين العقل وبين الروح(3) ولأجل ذلك لابد من الفلسفة التطورية والتي هي تمتد دون تردد إلى أشياء العمليات التفسيرية التي نجحت في المواد الخام، كان لديها بداية لإظهار لنا في الذكاء تأثيرا محليا للتطور، يصفه "برغسون" بالتوهج الذي ربما هو عرضي يضيء مجيء وذهاب الكائنات الحية في الممر الضيق المفتوح لعملهم.

هذه هي ميزة أفكار برغسون حسب جيل دولوز فهي حاضرة كمنهج من خلال الحدس الذي قال عنه جيل دولوز: "إن الحدس هو منهج البرغسونية، بل هو منهج معدو حتى احد المناهج الأكثر إعدادا، له قواعده الصارمة، التي تشكل ما يسميه برغسون "الزمان" في الفلسفة." (2 صفحة ص6) إن هذا النص ليوحى بوجهة نظر بالغة الأهمية صاحبها هو جيل دولوز وموضوعها هو الفكر البرغسوني ودون تأويل أو شيء من تحميل النص معان بعيدة يمكن لنا إدراك مضمون وجهة النظر هاته ومفاده أن المنهج الذي وضعه برغسون لم يكن مجرد طريقة بالمعنى الضيق لمفهوم الطريقة - كيفية -، بل هو منهج لا يقل قيمة عن المنهج التجريبي الذي وضعه فرنسيس بيكون وطوره تلامذته وأتباعه من أمثال هيوم ولوك؛ أو منهجا لشك الديكارتي أو حتى المنهج الفينومينولوجي الذي صاغه هوسرل، إن المنهج الحدسي هو منهج معد أي تم الوقوف فيه على كل الحثيات حتى الجزئية منها، لأن لفظ الإعداد يعني في اللغة الاهتمام البالغ والإتقان في الإنشاء

ثم ينتقل جيل دولوز بعد ذلك إلى مفهوم الزمان كمعطى مباشر ليس بالمعنى المتداول وهو تراكم الحوادث (ماضي، حاضر ومستقبل) بل الزمن الذي فهمه جيل دولوز عن برغسون هو اللحظات المتعاقبة والمتبدلة أي التي تعني الصيرورة أو الديمومة؛ عندئذ تبرز ضرورة الفصل بين الزمان والمكان في الفلسفة البرغسونية حسب جيل دولوز، وفي هذا المقام كان لابد من إيجاد نص يمنح قراءتنا هاته المشروعية وهو الآتي: "يقدم لنا الزمان الخالص تعاقبا داخليا صرفا، من دون خارجية. ويقدم الحيز خارجية من دون تعاقب" (2 صفحة ص35)

أخيرا، يهتم جيل دولوز في فلسفة برغسون بالذاكرة كوجود مشترك بالقوة، إذ يبرز دور هذه الملكة حسب برغسون في تكديس الماضي بعد حفظه في الحاضر؛ فالذاكرة هي التي تجعل الحدس قادرا على الوصول إلى كل المواضيع التي حتى وكانت قد مضت فالذاكرة تجد لها مكانا في الحاضر باعتبار الماضي عصيا على الحدس، كما تقدم الذاكرة للزمان صيغة لا نجدها إلا في فلسفة برغسون فالحاضر هو عبارة عن زمان متكسد أو إن صح القول هو الزمن الآني المشبع بالماضي المحفوظ في الذاكرة، لذلك يقول جيل دولوز عن برغسون في هذه الجزئية ما يلي: "إن الزمان في الجوهر هو ذاكرة.... والحال أن هذا التماثل بين الذاكرة والزمان بالذات، إنما يقدمه برغسون دائما بطريقتين: حفظ الماضي

في الحاضر ومراكمته فيه أو إما الحاضر ينطوي على الحاضر الذي ما ينفك يكبر." (2) (صفحة ص35) نستنتج أن جيل دولوز يقدم "برغسون" كأحد أهرامات الفكر الأوربي بل الإنساني المعاصر بشكل عام، فهو إن صح القول فيلسوف ناحت لم يكتفي بفلسفة وصفية أو تحليلية لما هو كائن بل قدم فلسفة أبدعت مفاهيم وأفكار تميزها حتى وصلت رؤيا متميزة للوجود والإنسان.

مفهوم الحياة عند "برغسون":

طبيعة الحياة: الحياة بالنسبة "لبرغسون" تتعلق بفكرة السورة الحيوية ومفادها أن الحياة منذ نشأتها هي استمرار لسورة واحدة توزعت بين خطوط مختلفة للتطور، لقد نما شيء وتطور بسلسلة من الإضافات التي كانت ألوانا من الخلق وهذا النمو نفسه هو الذي أدى انفصال الميول التي لم تكن تقدر على النمو بعد نقطة معلومة دون أن تصبح غير متوافقة، فيما بينها (4)، ذلك التطور يعبر عن سمة مهمة في طبيعة الحياة تعنى بالاستمرارية، ولعل هذا الموقف يذكرنا بنظرية التطور عند "سبنسر" و"داروين" وإن كان "برغسون" ينظر لها بشكل آخر لا يتعلق بالمادة واعتبار الطبيعة البشرية مثلها مثل الطبيعة ككل، حيث أكد على ذلك من خلال مؤلفه "التطور الخلاق" سنة 1907، حيث أكد أن دافع الحياة واستمراريتها هو العقل البشري المرتبط بالذكاء حيث أن ذلك الذكاء تقدم بشكل متواصل على طول خط يتصاعد خلال الحيوانات الفقيرة إلى الإنسان باعتبارهما يختلفان عن الجماد، وأن ملكة الفهم وهي ملخقة بملكة الفعل هي تكيف تزايد في الدقة والتركيب والمرونة لشعور الكائنات الحية مع ظروف الوجود المهيأة لها (5)، والذكاء أي العقل ميزة حصرية للكائن الحي، حيث تساهم في تطويره، بمعنى أن طبيعة الحياة تتطور بفضل ممارسة التفكير والتدبر بمعزل عن التأثيرات الفيزيائية على الكائن الحي الإنسان الذي هو جزء من الطبيعة، لكن لا بد من القول أن العقل البشري المتصف بالذكاء لا يمكنه إدراك طبيعة الحياة حسب "برغسون" باعتباره جزء من هذه الحياة خلقته في ظروف معينة ليعمل في ظروف معينة ؟ فلو كان ذلك صحيحا لتساوى الكل مع الجزء، ولجاز لنا حسب "برغسون" القول أن المحارة هي التي ترسم شكل الموجة التي حملتها إلى الشاطئ، ويتضح ذلك من خلال شعورنا بالتعارض بين المقولات العقلية المنطقية التي تُركب في الذهن وبين مقولات الحياة، من وحدة وكثرة وعلية وآلية وغائية على اعتبار أن تطور الحياة يخضع لخصائص المادة وهي الإستمرارية " والتغير

والاحتفاظ بالماضي في الحاضر أي الخلق المستمر لأشكال جديدة، لكن يرفض "برغسون إخضاع التطور الحيوي للغرض الميكانيكي الذي يتصوره "سبنسر(5) صفحة 335)، بحيث يعتبر "برغسون أن الطبيعة البشرية مردها للمحيط والبيئة التي تلازمها سواءً كانت اجتماعية أو طبيعية، فالثورة الفرنسية جاءت مصاحبة لبيئة تعيسة وصعبة وفقيرة لأدنى مستويات العيش فأثر ذلك في طبيعة الحياة لدى الإنسان الفرنسي ونمط تفكيره مما أهله لقبول مجموعة من المتغيرات الحياتية خصوصا ما تعلق بالقيم الروحانية التي تحولت لقيم مادية نفعية وبراغماتية بامتياز لذلك يقول "برغسون" الحياة غير ممكنة من غير التغيرات التي بها تتحقق الحياة متناسقة فيما بينها ومتوائمة مع الوسط المحيط بحيث لا يحدث خلل بين توازن الكائن الحي ولا أحوال تكيفه مع ظروف الوجود(5)، فلقد سعى "برغسون إلى رد الاعتبار للحياة الروحانية للمجتمع الفرنسي بشكل خاص والغربي بشكل عام، من خلال إفادته من العلم المعاصر والتجربة الموضوعية، حيث أكد على أن المعارف ترتبط بوعينا بالحياة وليس بالطبيعة الفيزيائية للإنسان(6) ولعل من بين أهم ميزة وخاصة تتعلق بطبيعة وتفسير الحياة بالنسبة "لبرغسون" هي أن الحياة في تطورها لا تسير في مسار وحيد ككذيفة يطلقها مدفع canon بل تشبه ما يحدث لقنبلة يلقى بها إنسان فتتشقت في كل اتجاه على هيئة شذرات، فالقنبلة عندما تتشتت فإن تشذرها الحاصل بها يفسر بالقوة الانفجارية للبارود الذي يحتوي عليه وبالمقاومة التي يبديها المعدن معا كذلك هو الحال بالنسبة للحياة تتشذر لأفراد وأنواع بسبب المادة الغليظة ثم بالقوة الانفجارية التي تحملها الحياة في داخلها تعود إلى توازن للميول غير مستقر(5 صفحة ص331) بمعنى أن طبيعة الحياة هي تعدد وتشتت بحيث تتفرع إلى عدة منوعات حياتية وليست بصورة واحدة، فالمجتمعات البشرية والحيوانية تتكون من مختلف الأجناس والاختلاف في اللون والعرق ونمط العيش، فكل ذلك هي تشكل للحياة وهذا ما يدفعنا لرفض الطبيعة الفيزيائية من حيث تأثيرها في الموجودات الحية، كما أن العلاقة بين الإنسان وسائر أنواع الحيوان حيث أن الفوارق تكمن في الشيء والاختلاف بينهما تحديدا في طريقة الغذاء، فالحيوان من متحرك بينهما الخلية النباتية محاطة بغشاء السيلولوز الذي يضطرها إلى عدم الحركة وبين الحركة والشعور توجد رابطة واضحة والنبات لا واع أما الحيوانات لأنها مضطرة إلى السعي بحثا عن الغذاء فقد دلفت في اتجاه النشاط الحركي المكاني وبالتالي

في اتجاه شعور متزايد في السعة (4 صفحة ص7) وبالتالي فالفارق بين معنى الحياة عند الكائن الحسي وعند الجماد هو الوعي وإدراك الحاجات البيولوجية كالغذائية والسعي لها عند الحيوان، أما مع الإنسان فالإدراك يتجاوز ذلك من خلال ملكة العقل التي تعينه في التفكير نحو فهم الحياة، والعقل هو ملكة تصنع الأشياء الصناعية وخصوصاً الآلات التي تستخدم في صنع الآلات التي تستخدم في صنع آلات أخرى وتنوع صنعها إلى غير نهاية ولهذا ينبغي أن نقول عن الإنسان أنه . صانع بقدر ما هو أو بالأحرى أكثر من ما هو- عاقل (4)، فما يميز الكائن الحي عند الموجودات الأخرى هو العمل المتمثل في الحركة والتنقل بشكل تلقائي دون قيود للبحث واكتشاف الطبيعة من حوله وفقاً للميول الغريزي الذي يجمع بين الإنسان والحيوان، لكن الحيوان لا يفكر ولا يدرك معنى الحياة بقدر ما يدرك غريزة البقاء، لذلك فالإنسان لديه القدرة القوية على البقاء والفهم الحياة في ذهنه وعكس ذلك على الواقع، هذه الأشكال الأخرى من الشعور إلى جانب العقل هي بمثابة قوى مكملة له، وهي قوى ليس لدينا عنها سوى شعور غامض مشوش حين نبقى منغلقيين في داخل أنفسنا لكنها، ستتضح وتميز حين تميز حين تبصر نفسها وهي تعمل في تطور الطبيعة. هنالك تدرك أي مجهود عليها أن تقوم به من أجل أن تتزايد شدتها من أجل أن تنتشر في اتجاه الحياة (5 صفحة ص333) ذلك هو التطور الخلاق الذي عمل "برغسون" على إظهاره في فلسفته الروحانية، في مقابل العقل الأداتي للعلم والتقنية، بحيث أن الإنسان المعاصر استغفل الأبعاد الروحانية للإنسانية جراء تعلقه المفرط بالمادة التي حجبت بصيرته عن الحقيقة الروحانية

مظاهر الحياة وتجلياتها

تحتل الديمومة مكانة مركزية باعتبارها تعنى "بالدوام" بحكم تعالقيتها بالزمانية الكيفية وهذا ما أكدته "برغسون" في مؤلفه الطاقة الروحية (كل شعور هو استباق للمستقبل أنظروا إلى اتجاه فكركم في أية لحظة إنه يهتم بما هو موجود ولكنه يهتم به في سبيل ما يكون بالدرجة الأولى، كذلك الشعور الجواني الكامن في مواطن روحنا منزلة مهمة تجعله يكتسب طابعاً ذاتياً وبيولوجياً في شعورنا الخالص مؤسساً وبصورة مذهلة لانتولوجيا ذاتية روحانية (7)، فالجانب الروحاني هو مبعث تلك الديمومة في حياتنا البشرية

الحياة ديمومة: من خلال مؤلفه التطور الخلاق لابد من الإشارة لفلسفة "برغسون" الكونية التي تقوم على الفكر الخلاق من خلال مفهوم الديمومة، ويرى ب"برغسون" أن التفكير المبكر السابق لأوانه الذي يقوم به العقل على ذاته، يبعدنا عن التقدم في حين نجد أن التقدم الخالص البسيط يقربنا من المعرفة ويرينا فوق ذلك أن كل العقبات ما هي إلا مفاعيل شرسة بمعنى مفتعلة فقط، ويقدم مثالا على ذلك من خلال قوله أن عالم الميتافيزيقا لا يتخلى عن الفلسفة وينحاز إلى الانتقاء أي لا يتخلى عن الغاية من أجل الوسيلة، وعن الفريسة من أجل ظلها في أغلب الأحيان، (8) وذلك يكون بأن يصل أمام مسألة المنشأ والطبيعة ومصير الإنسان فهو يتقلص عنها لكي لا ينتقل إلى مسائل يعتبرها أعلى منها فينطلق حسب "برغسون" نحو حل مسألة مصير الإنسان فهو يبحث في الوجود عامة، ويبحث في الممكن وفي الواقع في الزمن وفي الفضاء في الروحانية وفي المادية، ثم ينزل درجة درجة، ليصل إلى الشعور أو الوعي وإلى الحياة سعيا وراء إدراك الجوهر، ولكنه لا يرى إلا أن تأملاته هي تجريد خالص وأنها تتناول الأشياء، من خلال هذا الكلام يمكن القول أن "برغسون" يتطلع إلى الوصول لحقيقة الحياة وهي الطاقة الروحية للبشر باعتبارها ديمومة ملحة للوجود فيما ما هو ممكن أي ما يمكن التدليل عليه علميا، وهو ما عبر عنه "برغسون" بقوله أن الحل يكمن في الملاحظات المتعلقة بمفهوم مزدوج للواقع العقلي والواقع مادي في الحياة ككل (9)، وبالتالي فهم الحياة كديمومة يقتضي التنسيق والتوافق بين المعطى العقلي والمعطى المادي، فالديمومة نقلة نوعية وجوهرية من حال إلى حال من دون الركون إلى التكرار والرتابة الباعثة على الملل في لحظة روحية ديمومية هي في حقيقة الأمر إبداع تجدد وانبعث خلاق متدفق باستمرار ومع هذا التغير المثير في صيرورة الديمومة لا نفهم منها البتة القطيعة مع الأحوال الجوانية القابعة في ملكوت أرواحنا بل هي سيل عرم متصل ومتلازم بالإرتباط ومتسلسل بلحظات الزمان الثلاث (الماضي والحاضر والمستقبل).

مفهوم الدين والأخلاق عند هنري برغسون ومنبعه

مفهوم الدين وأنواعه:

من خلال مؤلف "برغسون" منبع الأخلاق والدين حيث جمع بين الأخلاق والدين بشكل¹ يرى انه لكليهما منبع واحد هو الانفتاح والانغلاق، فالأخلاق أخلاق مفتوحة وأخرى

مغلقة (أو منغلقة)، والدين دينان دين مفتوح ودين مغلق، ومن المهم التأكيد حسب "برغسون" على أن الأخلاق تقوم على مبدأ الحرية الإنسانية حيث قال 'إن كل حدية الحياة تأتيها من حريتنا فما يصدر عنا وما حولنا ذلك هو ما يهب الحياة مسيرتها الدرامية أحيانا والجادة عامة(16) والأخلاق المنفتحة هي أخلاق المجتمعات المنغلقة التي تشبه نوعا ما خلية النحل أو بيت النمل، ولقد كان برغسون في مؤلفه التطور الخلاق قد بين أن التطور في المملكة الحيوانية قد نى على خط متباين أحدهما لدى الحشرات أدى إلى الغريزة والثاني لدى الإنسان أدى إلى العقل وبفضل هذا المشترك يشارك الإنسان في نفس التضامن بين الجزء والكل كما نجده في عالم الحشرات بين نحل الخلية أو بين نمل بيت النمل، فما يحدث عند الحيوان هو غريزي أي بالضرورة ندين به للعادات في الجماعة الإنسانية(5 صفحة ص7) ومن المهم التأكيد كذلك على الانسجام التام بين الأخلاق والدين فنداؤهما واحد في الأهداف والمبتغيات ففي صورة المسيح تنكشف الأخلاق المفتوحة التي تفيض على الإنسانية حبا، على اعتبار أن الأخلاق كعلم يبحث في أفعال الإنسان من حيث صوابها وخطئها وتأديتها للخير والشر، فالخلق لغة هو العادة والسجية والطبع والدين(17)، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الدين غدا يصعب وضع حدود لهما إن الدين الذي يحث على أن نسله في حياتنا هو ذلك الذي يتعلق بالإله العظيم الذي نتحد به فتتكشف معه الإشرافات وتضيء بفضلها النفوس الممتازة(7 صفحة ص8)، ولا يتأتى للإنسان أن يتعلق بالإله وينجذب بمنحاه وتفيض عليه القيم فيضا إلا بعد أن ينأى بنفسه عن الطبيعة التي جعلته يقبع في دين ستاتي (سكوني)، وبالتالي يتعين عليه أن يتملص من العقل ويصعد في ملكوته نحو الاندماج بالله الذي هو الماهية الحقة للدين المتحرك الديناميكي، فالدين السكوني دين ميتافيزيقي خاضع للطبيعة في حين أن الدين المتحرك مفارق للطبيعة، ولا شك أن التجربة الصوفية تعبر عن العلاقة المتينة بالدين الديناميكي المتحرك والحيوي وهو الدين الحق لأن أتباعه ينهلون عرفانهم من إله عظيم مفارق للطبيعة(8 صفحة ص134)، ولقد برهن "برغسون" على وجود الله من خلال الاتحادية والحلولية في القلب التي تعبر عن العرفان بالله من غير دليل عقلي فلسفي، فالدين الساكن دين طقوسي

ووثنى جامد لا روح فيه مطلقاً، أما الدين الذي يراهن عليه "برغسون" فهو الدين المتحرك الديناميكي المتجدد في كل زمان قوامه الروحانية المحضة .

منيع الدين:

الدين الذي يسميه "برغسون" بالاستاتيكي أي السكوني أصله ليس من العقل بل منشؤه الأساطير التي تفسر بقايا الغريزة المحيطة بالعقل كالأهداب في إحاطتها بالعين ذلك أن الإنسان البدائي ارتبط بالطبيعة تماماً، وفسر ظواهرها وفقاً لتخمينات خرافية تنبع من غريزة الخوف، ولما كان العقل يميل إلى فصل الفرد عن المجتمع ويهدد بقطع التماسك الاجتماعي في بعض النقاط فإن الطبيعة تفعل ضد هذه القوة المحللة ألي العقل وهذا تنتج الخرافات والإمتهالات خيالية والطيعة superstition، والاعتقاد الديني والدين البدائي هو أولاً احتياط ضد الخطر الذي يتعرض له المرء من ما فكر في ذاته ولم يفكر إلا في ذاته وهذا رد فعل من الطبيعة ضد العقل ضد تصور حتمية الموت (16 صفحة ص 137)، فمثلاً عندما ننظر للفكر القديم خصوصاً الإغريقي نجد أن الإنسان اعتقد بوجود ألهة متعددة وجعل لكل شيء أله خاص به معتقداً أنه بذلك سينجو ويذهب عنه الخطر، فوظيفة الدين الأول تكمن في حفظ بقاء المجمع مباشرة، أما الوظيفة الثانية فتعمل كذلك لخير المجتمع ولكن عملها غير مباشر وذلك من خلال إثارتها نشاط الأفراد وتنظيمها فعاليتهم، فميدان الحياة هو ميدان الغريزة تخلت عن جانب من جوانب موضعها للعقل في خط من خطوط التطور، فإذا نتج عن هذا الخلل في الحياة لم يكن أمام الطبيعة عندئذ إلا أن تثير العقل على العقل والتصور العقلي الذي يخدم الطبيعة بعادة التوازن على هذا النحو هو التصور الديني (16 صفحة ص 141)، وبالتالي فالدين الحقيقي هو ذلك الدين الذي يعبر عن إرادة الحرية للفرد التي تتجاوز الإطار الغريزي، متفتحة على الجانب العقلاني خارج المجتمع والجماعة لبعث الإبداع الخلاق أو الدين التحرري المعبر عن التجربة الفردية العرفانية التي تحرك الجوانب الوجدانية في الفرد، وتمكنه من شحن طاقاته الإبداعية التي تعبر عن القدرات الإبداعية التي ينظر لها على سبيل المثال على أنها حاجة تدفع بصاحبها لتوظيفها، وتوليد قيم معينة لدى الفرد من شأنها توظيف تلك القدرات، وهذا ما سماه "روزنبرج" مركز القيم (18)، وهو الأمر الذي يدعوا له برغسون من خلال تبنيه لمسألة القيم

المتحركة أو الدين الديناميكي، لأنه يتيح لصاحبه فسخ المجال نحو إظهار ما يملكه من ملكات إبداعية خلاقة .

خاتمة:

كإجابة عن الإشكالية المطروح من خلال الأسئلة المطروحة في المقدمة يمكن القول ما يلي:

يمكن فهم طبيعة الحياة من خلال العلاقة بين الذاكرة والزمان والاندفاع الحيوي بفضل أن الزمان هو صورة جوهرية تعددية تتخلله الذاكرة الأمر الذي يبين لنا الإندفاع الحيوي.

تعتبر مظاهر الحياة معبرة عن حقيقتها رغم تنوع أشكالها وذلك باعتبار أن الحياة صورة واحدة فقط بناء منظومة الحياة تكمن في تبني مفهوم تطوري للقيم والدين ونبذ الدين الطقوسي الرجعي.

في الأخير، يمكن القول كخلاصة أن طبيعة الحياة تكمن في التناسق بين الزمان باعتباره تعددية كونه يمثل صورة جوهرية تؤدي بالضرورة إلى إمكانية حدوث الفعل الذي يعبر عن الاندفاع الحيوي الذي تضمنه الذاكرة .

يعتقد برغسون أن الحدس هو نتيجة ضرورية لارتباط الزمان بالذاكرة، وهو الأمر الذي يشكل عمود الفلسفة الروحية البرغسونية. تعتبر الحياة تطورية وتشكل الديمومة سمة جوهرية لها لضمان عملية الإستمرارية للحياة، لكنه يرفض ربط هذا التطور بالعملية الفيزيائية الميكانيكية التي أقرها كل من داروين وسبنسر حيث اخضع طبيعة الحياة البشرية للعوامل الفيزيائية الطبيعية بحيث يكون الإنسان آلة فقط لا روح فيها .

الديمومة مظهر مهم وجوهري للحياة يقوم عليه الفكر الخلاق وهو سمة مميزة للجنس البشري، ذلك الكائن العاقل الذي لا يجب أن يخضع للغريزة مثل الحيوان.

الأخلاق والدين لهما وظيفة واحدة في المجتمع، وقال أنه هنالك نوعان من الدين الأول سكوني طقوسي والثاني منفتح ديناميكي، وهذا الأخير هو الذي لابد من تبنيه وإتباعه لأنه يعبر عن تجديد الطاقة الروحية في الإنسان ويحرره من الوثنية والطقوسية ويتيح له الإبداع، وهذا الأمر جعل برغسون يذهب لتبني العرفان باعتباره طاقة متجددة في النفس تعبر عن حقيقة الحياة الروحية للإنسان بعيدا عن المادية .

الهوامش:

1. العبادي عبد العزيز إتيقا الموت والسعادة. صفاقس: دار صامد للنشر، 2005. صفحة 10. المجلد ط1.
2. جيل دولوز. البرغسونية. [المترجمون] أسامة الحاج. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1997م. صفحة 12. المجلد ط1.
3. bergson, Henri. le evolution créatrice. paris: les presses, originalement publié en universitaires de France, 1907 1959, p. page 372. Vol. 86 edition.
4. مدونة محمد الطيب. صوت أنساني، فلسفة الحياة عند هنري برغسون. مارس 2014. صفحة 04.
5. بدوي عبد الرحمن. الموسوعة الفلسفية، ج2. 1984. صفحة 331. المجلد ط1.
6. هنري برغسون. بحث في المعطيات المباشرة للوعي. [المترجمون] ترجمة الحسن الرازي. بيروت: اسم غير معروف. صفحة ص11. المجلد ط1.
7. كمال طيرشي. الفلسفة الروحية عند هنري برغسون. مجلة تبين، 4/13. 2015.
8. هنري برغسون، ترجمة، ص 6. الطاقة الروحية. [المترجمون] ترجمة علي مقلد. القاهرة: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991. المجلد ط1.
9. Henri bergson, H. durée et simultanéité à propos de la théorie de enteïn. 1922. p. page 30.
10. حسن حنفي. برغسون فيلسوف الحياة. صفحة 146.
11. جون لويس. الإنسان ذلك الكائن المنفرد. [المترجمون] ترجمة صالح جواد الكاظم. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب بالتعاون مع دار الثقافة، بغداد العراق. صفحة 05.
12. هنري برغسون. الضحك. [المترجمون] ترجمة سامي الدروبي، عبد الله عبد الباقي. مكان غير معروف: الهيئة العامة المصرية للكتاب. صفحة ص40.
13. حبيب الشاروبي. بين برغسون وسارتر - أزمة الحرية. مكان غير معروف: دار المعارف، 1962. صفحة 18.
14. إيمانويل كانط. نقد العقل المحض. [المترجمون]، ترجمة وتقديم موسى وهبة. لبنان: مركز الإنماء القومي. صفحة ص24.
15. فريال حسن خليفة. الدين والسلام عند كانط. مكان غير معروف: مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001. صفحة ص24. المجلد ط1.
16. هنري برغسون. منبع الأخلاق والدين. [المترجمون] ترجمة سامي الدروبي، عبد الله عبد الباقي. مكان غير معروف: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971. صفحة ص133.
17. ي. دني. أصول الأخلاق. [المترجمون] ترجمة إبراهيم رمزي. القاهرة: كليات عربية للترجمة والنشر، صفحة ص09.
18. عبد اللطيف محمد خليفة. ارتقاء القيم، دراسة نفسية. مكان غير معروف: عالم المعرفة، 1992. صفحة ص16.